

## كتاب في علم النفس

للإستاذ محمد الجواهري

عزفت فيمن عرفت من الناس رجلا يشتغل بالروحيات وينفق معظم وقته في تمحيصها ودراستها في عزلة تامة قائما بما يتيسر له من رزق خلال يسد به بلفته وبلغة عياله وقد قضى ردحا من الزمن يدرس ويكتب ويفكر ويستنتج دون ما كلل او سخر حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ببولاتها ومصائبها فاختلت موازين الناس واضطربت مقاييسهم واصبحت الماديات تسيطر على النفوس سيطرة قاسية لاهوادة فيها ولا رحمة . وجاء دور التعوين فصارت الاشياء تباع بالبطاقات بالنظر لقلتها وارتفاع اسعارها وتلاعب التجار والباعة في مقدراتها وشؤونها . وراح رب كل ابيرة يراجع دوائر النفوس ليحصل على وثيقة تجوى اسمه واسماء افر ادعائه ووقدر اجوابيا بالنون في الجهد ليتمكنوا من تسجيل اكبر عدد من النفوس التي يعولون بها وذلك بغية الحصول على مادة اكثر ومحصول مضاعف ، اما صاحبنا فلم يجرئ منه سا كذا هذا التكاثر العنيف على المادة بل ظل هادئا ينظر الى الحالة الراهنة نظرة استخفاف وسخرية بالرغم من اهتمام زوجته وتشجيعها له على المضي في سبيل الحصول على اوفر نصيب مما يحصل عليه الناس من مواد الغذاء والثياب وبعد الاخاح الشديد والاصرار المتواصل من قبلى الزوجة ذهب الى دائرة النفوس واستحصل وثيقته الصادقة التي لا غش فيها ولا تزوير وعاد بها الى البيت فرحنا منه بان كل شيء انتهى بمجرد الحصول على الوثيقة فاستقبله زوجته بفرح وسرور عظيمين . وجاء وقت التوزيع توزيع الشاي والسكر . فخرج صاحبنا الى السوق مستصحبا معه ظرفين احدهما للشاي والاخر للسكر فوجد حركة غير اعتيادية عنيفة وتجمهرا غير مهود على مخازن الباعة لهاتين المادتين فوقف ناحية يجبل بنظره في ذلك الزحام المتراس والمعجب اخذ منه

كل ماخذ ومرت الساعات سريرة دون ان يستطيع خلالها ان يتقدم شبرا نحو الخزن وكانت تمر عليه الوان من البشر حاملة استحقاقها على الرؤس والاكتاف بهيئات زرية غير لافتة بهذا الخلق الذي شرفه الله على غيره من الخلوقات فتضاعف من هم وتزيد في حسرتة ثم قفل راجعا الى بيته بجفني حنين وكانت زوجته بانتظاره ولما وجدت الظرفين فارغين قطبت وجهها وعادت الى غرفتها تتمتع بكلمات تمر عن سخطها وامتاعها من هذا الزوج الذي قصر عن اللحاق بغيره في ميدان الجشع والتكالب ومر ذلك اليوم وغمامة الخزن لم تبرح البيت وساكنيه وفي الصباح الباكر تشجع الرجل مدفوعا بحماس شديد من زوجته وذهب للمرة الثانية الى السوق لعله يفوز باخذ حصته بالصورة التي لا تخدش عواطفه ولا تحط من كرامة يده انه لما وصل الى الخزن وجد الناس عليه اكثر منهم بالامس فأخذت الحيرة منه مأخذا قاسيا ووقف ومظاهر الغشل بادية على صفحات محياه لا يدري ماذا يصنع تجاه هذه الازمة الخائفة ايبقى واقفا وبذلك ذهاب لوقتته وارهاق لنفسه ام يعود الى البيت خائبا وبذلك تقار الزوجة وعرا كها وبيننا هو في حيرته اذ مر عليه اخ البائع وكانت له صحة ومعرفة به فابتدعه قائلا : اني لا استطيع خوض غمار هذا الزحام وانت اعرف الناس بي وبهجزي عن ممارسة هذه الامور فهل يسمعك استحصال حصتي من مخزن اخيك وهذه وثيقتي ودرامتي بين يديك ولا تنس بانك كعمل معروف وسوف احفظه لك بالشكر والامتنان فابتسم الرجل في وجهه ابتسامة الهزء والسخرية ثم هز برأسه ومضى لسبيله .

حار الرجل في امره وراحت مزاراة الخيبة تمزقا معاه . وكراهية الانسان تملأ نفسه ألما وموجدة وقد غلى دمه في عروقه غليان المرجل على النار وهم بالرجوع لكنه تصبر وبقي واقفا ينتظر الفرصة السانحة الى ان صار الظهر آ نذاك اقل البائع مخزنه استأنف العمل عصرآ وانصرف الناس ليمودوا في الوقت المناسب ولما رأى صاحبنا تلك الشخصية البارزة التي اصبحت يدها مقدرات الناس تمر من امامه ومن حولها هالة من المتزلفين الذين يتوقعون انفراج ازمته على يديها امسك بها وراح يناشدها المعونة للحصول على استحقاقه بلهجة تم

عن عتاب صارخ وتوبيخ محض غير ان تلك الشخصية المزيفة  
المفرورة لم تعره اذناً صاغية وميرت في طريقها مرور العاصفة  
التي لا يقف امامها شيء دون ان تحطمه وتزيله عن الوجود .  
فعاد الرجل يجر خطاه الى البيت والدنيا في عينيه اضيق من  
شم الخياط ولما طرق باب داره خفت الزوجة الملحاحة لفتحتها  
مؤملة نيراً بعد الزيت والانتظار ولكنها سرعان ما صرخت  
بوجه ابن السكر ابن الشاي انك والله لست برجل الم تر  
الناس ولم يبق واحد منهم دون ان يحصل على استحقاقه فاغرورقت  
عينا الرجل بالدموع ودخل الدار وراسه في الارض خجلاً  
واستحياء او عند العصر خرج ايرفه عن نفسه في المجالس العامة  
وفي اي مجلس يرتاده يسمع فيه حديث التموين وكل بيدي  
وجبة نظره فيه يتلذذون جميعاً ببيء وقائمه وبسط نوادره  
وراي بعض الوجوه ضاحكة مستبشرة لانها تمكنت من اخذ  
حصتها من الشاي والسكر وغيرها متجهمة ترهقها فترة لانها  
لم تتمكن على حصول ذلك، وكان الاحاديث العامة انحصرت  
في هذين المادتين فراحت تحتل الصدارة من المجالس والجمعيات  
فلا احاديث الادب ولا مباحث العلوم لها اثر او وجود عند  
الناس . فباله مارآه وعظم عليه انحدار الناس الى تلك الهوة  
السحيقة من المادة . وامتلات نفسه بتضا وكراهية لهذا  
النوع من الخلق العجيب الذي يسمونه الانسان . ولم يلبث  
حتى عاد ادراجه الى بيته بين نضائد الكتب واكوام الاوراق  
يشغل نفسه فيها ويعمن في دراسة علم النفس البشرية . وقد  
ترك حصته من السكر والشاي الى البائع يبيعهما لغيره باضعاف  
اضعاف قيمتهما وراح يعمل جهده في ابطال عادة تناول الشاي مادامت  
تستعبده وترهقه وهكذا مرت الايام وانتهى دور التوزيع  
وجاء دور توزيع القماش وكان صاحبنا يرى فيه كل خير ونجاح لان  
اكثر الباعة لهذه المادة يعرفونه ويقدرونه وله معهم صحبة  
ومودة فذهب الى السوق مدفوعاً بدوافع كثيرة اشدها عنفاً  
دوافع زوجته التي لا تفي تلح عليه وتشججه وفي الطريق وجد  
الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مراكزهم يحملون حصصهم  
من القماش بصورة مشوشة فهذا رجل منهم يحتظن قِطع  
القماش مكدسة ويسير بها فرحاً مستبشراً وعبائته تخط الارض  
من خلفه بصورة مضحكة . وذلك مكشود قد وضع قماشه بمد

ان تناوله من الخزن على دكة في الصحن واخذ يرتبها وينضدها  
ليسهل عليه حملها وصدره مكشوف وحزامه منحل وهيشته  
تبعث على السخرية والاشمئزاز . وذلك معقل قد حمله بين ذراعيه  
وسار به - كمن يعانق برميلا - سيراً متمراً وعقاله مقسوم الى  
نصفين نصف الى الامام ونصف الى الوراء . وذلك مصدر  
قد حمله مرتباً بمد ان عانى في سبيل ذلك تبعاً وارهاقاً وسار  
به خجلاً لانه لم يعد ان يسير ويده مشغولة بحمل شيء غير  
المسبحة او السلسلة . وتلك امرأة قد وضعت على راسها وامسكت  
به بكفتي يديها وذهبت به الى السوق السوداء لتبيعه باغلي  
الاثمان ثم واصل الى المخازن فوجد الناس نساءً ورجالا  
يتدافعون بالمناكب ويتسلقون الجدران كأنهم الجراد ورأى  
صاحب الخزن يدفع هذا ويلطم ذاك يذود عن مخزنه ويدافع  
عن امواله فوقف يستعرض المنظر عن كئيب يتنزي من  
الآلم وعين تفيض بالدموع وهناك شاهد بام راسه صراع  
القوة مع الضعف والباطل مع الحق اذ رأى رجلاً ذوي سواعد  
غليظة وصدور عريضة سرطان ما يشقون طريقهم الى الخزن  
ويأخذون أجود ما فيه من القماش ثم يعودون ويتسامة الظفر  
ترقص على شفاههم ورأى آخرين ضاعفاً تقصر ارجلهم  
ونفوسهم عن اقتحام ذلك الحصن الحصين فيتأخرون ثم يعودون  
اما بخصوصهم على التافه الردي من القماش واما بمدم حصولهم  
على شيء منه وهم حنقون متبرمون يودون ان يكشف الله عنهم  
هذه القصة التي اوقفهم ذلك الموقف الرهيب . وما زال واقفاً  
يذتئر فرصة تمكنه من مخاطبة البائع الذي يعرفه ويرجو معونته  
حتى انفرجت فرجة لم تدم اكثر من دقائق معدودة تمكح  
بواستطتها ان يخاطبه باسمه ويرجو منه اعطاءه استحقاقه من  
القماش فحول البائع نظره عنه وكشغل بمخاطبة غيره كأنه لم  
يعرفه من قبل ولم يقدر مواهبه العلمية والادبية ولم يعجب  
بهائم اشدد الزحام وتلاطمت امواج المستهلكين فرجع الرجل  
الى مكانه والحبيبة تقطع امعاء والعرق يكلل جبينه وهناك  
فضل حرمانه على شيء تافه لا يعود عليه الا بالذل ثم تذكر تقار  
زوجته وعري اطفاله ومسيس حاجتهم جميعاً الى القماش فتريت  
وصبر ريثما يفرغ البائع ويعود الى بيته ومن ثم يتصل به اتصالاً  
مباشراً ويعرض حاجته عليه لسابق معرفته وصادقته معه ولما